

المقتطف

الجزء الاول من المجلد المائة و لوحد

١٧ جادى الاول سنة ١٣٦١

١ يونيو سنة ١٩٤٢

أوروبا بين عهدين

مرآة تاريخية

الحوادث التاريخية كثيرة الزلزال ، اذا اريد بها استخراج احكام عامة ، موازنة بين حادثين بينهما ، أو بين رجلين من الافئدة . فليس في الرسم ان نستخرج حكماً تاريخياً أو حريياً ماناً ، من المناقشة بين زحف نوليون على موسكو في شهر يونيو سنة ١٨١٢ ودخوله العاصمة الروسية في سبتمبر ، وبين زحف هنر صوبها في يونيو كذلك من سنة ١٩٤١ وعجزه عن دخولها حتى الآن . ولكن اذا كان مريق من الكتاب قد استسلم الى استخراج احكام عامة ، لا سند لها ، من هذه المقابلة ، فان ذلك لا يعني اننا لا نستطيع ان نحكي فائدة ما ، من المقابلة بين الأحوال العامة في العهدين — عهد نوليون وعهدنا هذا . ففي الطب مثلاً ليست كل اصابة بالانفلونزا ماثلة تماماً لكل اصابة أخرى . وكذا دعي طبيب لمعالجة حالة من هذا القبيل ، عليه ان يتذكر انها في ناحية ما مفردة ولا مثل لها . واذا اهل ذلك فقد بحث في مهمته . ولكن عليه ان يتذكر كذلك انها تشبه الطرأث الاخرى في كثير من التواحي العامة والاحكام التي تجري عليها جميعاً . وبولا ذلك ، كان ارتقاء علوم الطب مستمراً ، ولا تحيرة الطبيب قيمة . فليطبيب يجني من خبرته ومن خبرة من تقدمه وتجاربهم — أي من التاريخ — فائدة كبيرة . والواقع ان المهندسين والباحثين والناشرين ، وغيرهم من رجال الاعمال ، يعملون ما يعملون استناداً الى ما يصبغون به انفسهم من

التاريخية historical uniformities إذا عدّوا هذه التشابهات أحكاماً مطلقة ونسبوا عملهم على ذلك ارتكبوا خطأ فاحشاً ، ولكنهم إذا شقوا وجودهما إطلاقاً كان خطأهم أخف . وحتى ذلك التمازاة — في لطاق هذا الموضوع — ليست بين حملة نوليون وبين حملة هتلر على روسيا ، ولا بين شخصي نوليون وهتلر بل هي موازنة بين الأحوال العامة والعوامل التشابهة في تاريخ أوروبا الاجتماعي ، في عهد نوليون وعهدنا هذا

نشرت حرب أوربية عامة (١٧٩٢ -- ١٨١٥) بعد انقضاء ثلاث سنوات على قيام الثورة الفرنسية . وكان اشتراك فرنسا في الثورة الأميركية ضد بريطانيا قيل ذلك ، وقد رفع قليلاً من منزلة الطبقة الحاكمة في فرنسا ، إلا أن الفرنسيين كانوا قد هزموا هزيمة منكرة في حرب « المائة سنة » مع بريطانيا ، وفقدوا إمبراطورية كبيرة في الهند وشمال أميركا الشمالية . وكانت حكومتهم منقسمة في سنة ١٧٨٩ وطبقات الشعب العامة تستنكرها وتنقم عليها . وكان زعماء الفكر فيهم ، قد مضوا جيلاً كاملاً وهم يدعون إلى إصلاح منشأاتهم السياسية والاقتصادية والدينية ، أي أنهم كانوا يدعون إلى انقلاب تام ، أو ثورة إذا شئت . وما دعا لويس السادس عشر « المجلس العام » إلى الانقياد في سنة ١٧٨٩ حتى قبض على زمام هذا الإصلاح الثوري . وبعد فترة قصيرة من الوحدة ، عقد فيها الرجاء على بعث الأمة بعثاً جديداً ، بأساليب الإصلاح السلي ، اتجهت الثورة إلى العنف ، فأسقط البيت الملكي ، وانتقل السلطان وريداً إلى الجماعات المتطرفة ، وتحلل انتقاله ، ما نعهد عادة ، من أعمال الارهاب في مثل هذه الأحوال . وفي أثناء « حكم الارهاب العنقوبي » كان الحكم في يد فئة قذية ، حكمت بالقوة بعد ما كانت جميع الحقوق المدنية . وما جاءت سنة ١٧٩٣ حتى كان الارهاب موجهاً إلى لعداء الثقة الحاكمة في الداخل ، وإلى اعداء فرنسا في الخارج كذلك . فشبت الحرب بين فرنسا والحلف النموي البروسي ، في ابريل ١٧٩٢ ، امتدّ نطاقها حتى أصبحت حرباً ضد « الحلف الاوربي الاول » وقد اشتركت فيه كل أوروبا تقريباً ما عدا روسيا وتركيا ، ضد فرنسا الجمهورية . وكان الفرنسيون الذين دخلوا معمة هذا النضال ، والحروب التي تلت ، مبشرين باملمين أولاً — الرغبة في تحرير الدول الاخرى من الاستبداد . وثانياً « رئاسة » هذه الدول ولو كان ذلك يقتضي ضمها إلى فرنسا . ولم يكن بين رجال الثورة الفرنسيين ، من يرى تناقضاً بين الغرضين ، لا يمانهم بأن كل دولة تصبح جزءاً من النظام الفرنسي ، تكون دولة حرة وان هذا الطريق هو الطريق الوحيد إلى الحرية . لم يصب الفرنسيون نجاحاً في سبتي ١٧٩٢ و ١٧٩٣ في الحرب وهددت باريس نفسها .

ولكن تحريك الجيش الشعبي الكبير : وادماج ضباط الجيش القديم في الجيش الحديث ، والاستعانة بالعلماء واخترعين والمهندسين : وظهور فريق من القراءات النواع — ولم تكن بونابرت إلا لنحدهم وان كان اعظمهم — انضى الى انقلاب ميزان التوازن ورجحان كفة فرنسا . إلا ان هذا النجاح لم يكن مرده الأول والاخير الى قوة فرنسا بل كان جانب كبير من مردهم الى ضعف خصومها ، وتمسكهم بأساليب الحرب القديمة ، واحتياجهم عن الاتحاد ضد الفرنسيين . والمؤرخون يعدون خسر محالقات اوربية اندثت لمقاومة فرنسا بين سنة ١٧٩٧ وسنة ١٨١٥ . ولو حاول كاتب ان يضع في جدول واحد من من الدول الاوربية كان مع فرنسا نو ضدها او عايداً لكنت الصورة مضطربة وخرج من بحثه هذا حقيقة واحدة وهي ان بريطانيا دون غيرها كانت ضد فرنسا خلال هذه المدّة كلها اذا استثنينا الفترة القصيرة التي أعقبت صلح اميان سنة ١٨٠٢ . واتوقع ان المحالفة الكبرى ضد فرنسا لم تعقد وقوة اوربا لم تحشد تماماً إلا في سنة ١٨١٢ وبعدها

وما تقلد بونابرت منصب القنصل الاول سنة ١٧٩٩ وعزز مكانته وأيد طائفة كبيرة من الاصلاحات التي بدى فيها سنة ١٧٨٩ حتى كانت الجيوش الفرنسية قد اكتسحت البلاد الواقعة غرب ألمانيا وإيطاليا . ثم أقام نابليون نفسه امبراطوراً وسيداً لاوروبا . وكان عندما بلغ أوجه قبل جلوسه على روسيا : قد أحدث في خارطة اوربا من التعديل ما يبعث على الدهشة في قلب هذا النظام الجديد كانت فرنسا ، بعد تنظيمها تنظيماً جديداً . وفرنسا هذه كانت تشمل بلجيكا وهولندا واتساح الانان الى هامبورج وشمال إيطاليا بما فيها نورينج وجنوى وبارما ومنطقتين أخريين وكان هو امبراطورها . ثم كان هناك تلك التابذة يحكمها أعضاء أسرة نابليون — مملكة إيطاليا وهي تشمل مالم يضاف الى فرنسا من ايطاليا الشمالية والوسطى وكان نابليون يحكمها بواسطة نائب ملك هو ابن زوجته لوجين ديه بوهارنيه . ومملكة نابولي يحكمها عديلة مورا . ومملكة اسبانيا يحكمها شقيقه يوسف . والاتحاد الازين وهو يشمل ناسا الغربية والوسطى وكان شقيقه جيروم ملكاً على وستاليا فيها . ودوقية وارسو ولم يتح لها امير من أسرة بونابرت . وكانت سويسرا مستقلة ولكنها في الواقع كانت تابعة . وبقي ذلك حلفاء فرنسا وهي النم وروسيا — بعد تعيين نظامها — والدول الاسكندنافية . وأخيراً كانت روسيا مرتبطة بفرنسا بعهدة تلميت . ولم يكن خارج هذا «النظام الفرنسي» في فترة اوربا إلا جزيرتا سردينية وصقلية يحكمهما الاسطول البريطاني ، والبرتغال يشيها الجيش البريطاني الصغير بقيادة ولستين

أما بريطانيا فكانت خارج هذا النظام لم تنظم فيه رضاها ولا أرغمت على الانضمام مع ان نابليون حاول مرتين حشد جيش على ساحل النافس لأخضاعها . ولكن بعد معركة الطرف

الأخر ابتعد شبح الغزو النابوليوني على الساحل البريطاني، ونابليون نفسه انصرف عن طريقة الغزو إلى طريقة حصر بريطانيا بمنع أوروبا من الاتجار معها، حتى تصاب باضطراب اقتصادي ينفضي إلى اذلالها. ولا يمكن أن نقصد إلى تجويعها، فقد كانت تملك سيادة البحار، وارتقاء الصناعة فيها لم يكن قد بلغ مبلغاً يوجبها إلى استيراد معظم طعامها من الخارج والنربون لم يفوزوا بالسيطرة على القارة الأوروبية، بفضل القوة الحربية المتفوقة لغيره بل كان لنابليون أعوان في كل بلد. نعم إن الجماعات التي كانت مبالغة إلى التعاون مع فرنسا كانت أقلية، ولكنها كانت في شمال إيطاليا وبلاد الرين أقلية كبيرة بحسب لها حساب. ويضاف إلى هذا أن الحكم النابوليوني في الممالك التابعة، أغضى إلى إصلاحات غير يسيرة، استرضت جامهر الناس بسلامة ما. وفي سنواته الأخيرة، اعتمد على جنود من الإيطاليين والبولونيين والألمان وغيرهم. ومع أن الاعتماد عليهم كان غير تام، إلا أنهم كانوا يصلحون لبعض الأغراض. غير أن ذلك لم يفته عن الاعتماد على عدد وافر من الفرنسيين في إدارة البلدان التابعة لفرنسا وحفظ الأمن فيها، وخاصة لأن بواذر البرم لم تحتض من بلديما، وفي اسبانيا لم تقبض الإدارة الفرنسية على ناصية الحال تماماً، وقتاً ما

بدأت مغامرة نابليون الأسبانية في سنة ١٨٠٧، «الحلمة اسبانيا من الانكيز». وبدأ أنها أصابت نجاحاً عند ما توج يوسف بونابرت ملكاً في مدريد. ولكن ثورة الشعب الأسباني على الفرنسيين، برأهم سحقها بالقوة، كانت الثورة الشعبية الأولى على السلطان الفرنسي في أوروبا. وكانت المقاومة الأسبانية المستندة إلى الجيش البريطاني — وهو لم يخرج من جنوب أوروبا الغربي — فعالة في حمل نابليون على الاحتفاظ بطائفة من صفوة جنده في اسبانيا وهناك هذه البندوة. فلما أتى القيصر اسكندر الروسي الاشتراك في الحصر الأوروبي ضد التجارة البريطانية، وبدأ نابليون حملته على روسيا ومزقت أوصال جيشه الإمبراطوري في الزحف والارتداد، أشراف النظام الأوروبي النابوليوني على نهايته، إذ جمعت حكومات أوروبا عزمها وحزمت أمرها على الاتحاد عليه. ولم يكن اتحادها هذا ميسراً، لأن صيت نابليون قد طبق الخافقين، وكان يُعدُّ قوة لا تقهر، وكان لا بد حتى بعد عودته مقهوراً من روسيا، من كل حقد الساسة البريطانيين ومزلة القيصر اسكندر ودهاء مترنيخ، لنفوز بالشاء «الحلف الكبير». وكانت النتيجة ما سجله التاريخ عن تقلص ظل السيطرة الفرنسية في أوروبا ونزول نابليون عن العرش في مونتفيل ونفيه إلى جزيرة الباجوردته منها والتمترة المعروفة باسم «فترة المائة يوم» ثم معركة واترلو

كل هذا يشبه كثيراً مما تناول علينا من الأحداث في بعض السنوات الأخيرة ولرشاء الباحث، لوضع محل «البعقوبيين» في الثورة الفرنسية «الحزب النازي» في ألمانيا، ومحل

« شرعية الثورة » « كشاف الجمل » ولوصف الجملات لثانية لفرنسا في إيطاليا وألمانيا بالنابور الخامس أو جماعة كوبرنيج ، ونظام بولوني بالنظام الجديد . وقال ان صلح أميان في ١٨٠٢ كاتفاق مبرم سنة ١٩٣٨ أنتهما . غبة في أمالة بولوني وهنر ولكن هذا قليل الجدوى ولا حاجة بنا اليه . فمتر كنسوليون ، توسل بالقوة العظيمة المنطقية من حركة ثورية ، اغزو معظم القارة الاوربية . وكلاهما واجه مشكلة عظيمة نواتها تنظيم فتحاتها في دولة كبرى . فهو على الدول القومية التي غرت ، لترسيخ اقدم الغزاة وتمكين تحكمهم . وقد أخفق بولوني في الخضاع بلد عظيم واحد ، هو بريطانيا ، وأخفق كذلك في انشاء تلك الدولة الاوربية الخاضعة للسيطرة الفرنسية . فادامت الموازنة بين الرجلين الى نتيجة المنطقية ، فمتر سيخفق كذلك على طول اندي . وقد استغرقت اذلة اللازمة لظهور الخفاق بولوني ربع قرن من الزمان . فهل في عهدنا عوامل ضارّت على الاجتماع الاوربي ، من شأنها ان تبطل الموازنة القائمة بين مصير بولوني ومصير هنر ؟

قبل سنة ونصف سنة من الزمان بدأ المتنبعي الحال ، ان هنر قد يتمكن من غزو بريطانيا فيقفى على القوة الحربية الاوربية الاخيرة التي اغترضت سبيل بولوني ، وأعلنت تعترض سبيله . واذا كان ذلك لم يتم فيجب ألا نستسلم الى ان المحاولة لا تجد وان كان احتمال نجاحها الآن بعيداً . وما فتئت تلك المنطقة الضيقة من المياه التي حالت دون تحقيق حلم بولوني ، تعترض سبيل هنر . وحرب هنر على الملاحة البريطانية الآن اشد خطراً من حرب بولوني ، لأن بريطانيا اكثر اعتماداً على ما تسورده من مواد الطعام . ولكن معركة « المحيط الاطلسي » سائرة بوجه عام في مصلحة بريطانيا مع ان خسارة الملاحة في بحار الارض ليست مما يستحق به . ويجب ان نضيف الى ان هنر يجد في الولايات المتحدة الآن خطراً كبيراً قوياً ، لم يتعين على بوليبس ان يواجهه . واذا كانت الولايات المتحدة غير متأهبة تأهياً يذكر عند ما فرضت عليها الحرب في ديسمبر الماضي ، فكذلك كانت بريطانيا غير متأهبة لحرب البر في سنة ١٧٩٩ — ١٨١٤ . وحتى كل حال فجميع الاحصاءات والاباء تدل على ان اميركا تدير سيراً حثيثاً في ميداني التأهب للحربي والانتاج الحربي الصناعي

وهناك عامل آخر . ففريق من الكتاب ، يرى ان الشرق الكبير بين عهد بولوني وعهد هنر ، هو ان التقدم في صناعة الآلات الحربية الحديثة يمكن فئة قليلة من الجنود الخنقة المسلحة بطائرات ودبابات ورشاشات ، من ان تبقي شعوب مغيرة على أمرها خاضعة لها ، فلا تتكرر الآن في فرنسا او غيرها من البلدان المغزوة ، ثورة أسبانيا أيام بولوني . وقتال المعاصيات في بعض هذه البلدان معها يتجلّ فيه من ضروب البسالة والوطية ، عاجز عن اكرام الالمان السلطين ، على اخلاء قبضتهم ، ما دام السلاح الحديث وصناعته وفقاً عليهم

والذين في ان مقاومة من نوع مقاومة الاسبان لنابليون ، قد تكون شاقة في هذه الأيام . فمن المتعذر مثلاً ان توزع الياقات على الثوار سرّاً ، كما كانت توزع استديقات وسائر الاسلحة الصغيرة . ولكن ، يجب ان نذكر انه لولا تأييد الجيوش النظامية للمقاومة المسلحة في اسبانيا في أيام نابليون لما أجدت مقاومة الشعب في قهر نابليون . والجيوش النظامية ، كانت حينئذ جيوش ولعنت في شبه الجزيرة الايبيرية . وثورة الشعوب المغلوبة في عهد نابليون ، لم تلبّ شعباً قوياً فضلاً إلا بعد عودة نابليون من روسيا هزيماً . أما الآن فان الروس يحاربون ببسالة عجيبة ، وبراعة فائقة ، وثقة واسعة ، وبريطانيا وأميركا تمداهم بالمعدات علاوة على ما يصنعونه هم في معاملهم . وجيش هتلر أصيب ، مادرياً ومعنوياً مع انه لا يزال جيشاً قوياً . وإذا تمكن الحلفاء من سيادة جزر أوروبا الغربية بطائراتهم ، فالجيش الذي يقابل جيش ولعنت ، يستطيع ان ينشئ له قواعد على البر الأوربي ، وعندئذ فقد تماثل الاحوال ، على الأرجح . ويجب ألا ننسى ان نشرة الصناعة الحديثة ، ولتقيدها ، واعتماد الجيوش عليها اعتماداً دقيقاً ، يجعل هذه الصناعة وتلك الجيوش عرضة لحادثة عن طريق تخريب يسير في مواقع حيوية ، وهذا التخريب قد يتم عن طريق المدنيين في البلدان المحتلة ، أو عن طريق المفيرات القاذفة

والالمان بشر بوجه علم ، وهم معرضون للتأثر بموامل الصداقة والحب والتراخي والمملء في البلدان التي يحمونها أو يحرسونها . وإذا كان اعتماد الالمان في هذه الحراسة على المقتربين النحسين من شبابهم الهتلري ، فمن يتقلد زمام الحكم في ألمانيا نفسها اذا وزعت النخبة التي يعتمد عليها في طول القارة وعرضها ؟ متى اذا كان في الوسع توزيع النخبة ، فهل تثيرت البواعث الأصلية في طبيعتهم تغيراً يمكنهم من ان يمتنعوا زمناً طويلاً عن الحب والشموة والصداقة وغيرها من العوامل التي أضعفت الحمايات الأجنبية في جميع البلدان في العصور السابقة ؟ في العصر الأغريقي القديم ، كان أبناء سبارطة ، قد درّبوا تدريباً طويلاً دقيقاً يفرق في طوله ودقته تدريب الشباب الهتلري ، على حساب الواجب والأمر العادر اليهم من الرؤساء فوق كل شعور أو عاطفة . ومع ذلك فان الحامية السبارطية في ثيبة ضعفت حالها لبعنوية بعد بضع سنرات ، فوقعت ضحية مؤامرة دبرها وطيويثية وطردت من المدينة . وإذا كانت الأسلحة الحديثة أفنك من الأسلحة القديمة ، وهي وقف على الحامية على الأكثر في العصر الحديث ، فان الطبيعة البشرية لم تتغير بواعثها الأصلية كثيراً خلال التي سنة من الزمان ثم عامل ثالث . يقال ان رجال النازي يملكون أداة لم تكن متاحة لنابليون ، فتمكنهم من الاحتفاظ بسلطانهم على الأمم المغلوبة . وهي أداة «الدعاوة» . فالأسلحة الحديثة في أيديهم تقضي على الثورة عليهم . والدعاوة الحديثة في أيديهم تقضي على مشيئة الثورة .

وقد قيل في هذا المعنى سيخف كثير . فمن سنة أو تزيد كان هناك من يزعم أن الألمان هم زعماء « ثورة الجماهير » في أوروبا . وأن الجماهير في كل أمة أوروبية يستعدون للترحيب بهم لأنهم يرون فيهم مستقبلهم من النظام القديم ، وأن جميع العادات والتقاليد والمثل الاجتماعية والثقافية القومية قد أصبحت من مخلفات الماضي . ومع ذلك نجد أن مشيئة مقاومة النازي يشتد ساعدتها وتسمع نطافها يوماً بوماً من بلاد روج إلى يوغسلافيا ومن فرنسا إلى بولونيا . وهذه المشيئة قومية لا ريب في ذلك . والدهاوة سلاح ذو حدين ، للنازي أحدها لا غير . ومهما يفعل النازي فأنهم حيال فرنسا أو غيرها أعجز مما كان نبليون حيال البروسيين . بل لا ريب في أن دهاوة الفرنسيين القائمة على مبادئ الثورة الفرنسية الكبرى ومبادئ الحرية والمساواة والإخاء كانت أفضل جداً من كل ما يتولاه جوبلز . بل أن فعال الألمان في تشكيا وبولونيا وسربيا وفرنسا وبنى في إيطاليا ، أبلغ من كل ما يقولون . ومهما تكلم الاتحاديت فهم هؤلاء القوم لا يمكن أن يرضوا عن النظام الألماني الجديد

من الجائز أن يتمكن الألمان في بضع السنوات المقبلة ، من استئصال شأفة المقاومة في البلدان المحتلة ، بممارسة تجويل الجماهير وإعدام الزعماء والمفكرين وما أشبه من أساليب القسوة والإفناء . ولكن البشر قادرون في أشد الأحوال مشقة وقساسة على أن يقاوموا مقاومة قد لا يتصورها العقل ، لأنها نابعة من أعماق الفطرة وغريزة البقاء . وإذا استخرجنا من علم الطب استعارة قلنا إن سم المرض النازي إنما إن يمت الشعوب ، وإما أن يدفعها رويداً رويداً إلى توليد حسنة ضده . وإذا صدقت عبر التاريخ السابقة ، فهذا إلى القول بأن التالي أدنى إلى التحقيق

قال روشنيج إن هنر لا يستطيع أن يقف عند حد ما ، وإن شهرة العظمة فيه مستدفعة إلى الماضي في طريق تفتح إلى أن يصاب الألمان بالإعياء . وقد يكون هذا الحكم صائباً . فنليون ، لم يقف حتماً عند حد قبل ذوات الأوان . ولكن حتى إذا توقف هنر أو خنقاؤه عند حد فتوحاتهم الحالية وحاولوا أن ينشئوا من هذه البلدان دولة كبرى ، لما كان يحاجهم حتملاً . فالمحكم على طول المدى يقوم على « القبول والمادة » . والقبول غير محتمل ، والمادة لا تفرخ كالنظر . بل تربي وترسخ زمناً طويلاً ويجب أن تكون تربيتها في أحوال يرضى عنها الحكومرون . ولا يبدو أن بريطانيا والولايات المتحدة وروسيا مستبح لألمانيا فرصة لتربية شعوب أوروبا على عادة التسليم بالنظام الجديد . ومما لا ريب فيه أن روسيا وبريطانيا لم تنبعا لنليون مثل هذه الفرصة مع أن سلطانه ظل قائماً مدى خمس عشرة سنة ^(١)

(١) . المحسن وإب لسل انفسه ذكر ابن رضى استاذ التاريخ في جامعة هارفرد وصدر به عدم يثير من محق « اندرون الدولية » وقد كتب فيل دخول الولايات المتحدة الحرب ولذلك الفرصة التي عجزت عنها وقد كانت حجة